

التبيان في تفسير القرآن

(310) وثالثها - قاله مجاهد: إن كل حجر تردى من رأس جبل فهو من خشية الله ورابعها - أن الله تعالى أعطى بعض الجبال المعرفة، فعقل طاعة الله تعالى، فاطاعه كالذي روي في حنين الجذع، وما روي عن النبي "ص" أنه قال: إن حجرا كان يسلم علي في الجاهلية إنني لا أعرفه الآن. وهذا الوجه فيه ضعف، لأن الجبل أن كان جمادا، فمحال أن يكون فيه معرفة الله. وأن كان عارفا بالله وبنيته بنية الحي فإنه لا يكون جبلا. وأما الخبر عن النبي (ع) فهو خبر واحد. ولو صح، لكان معناه أن الله تعالى أحيا الحجر فسلم على النبي "ص" ويكون ذلك معجزا له "ع". وأما حنين الجذع فإن الله تعالى خلق فيه الحنين، فكان بذلك خارقا للعادة، لأنه إذا استند إليه النبي "ص" سكن وإذا تنحى عنه، حن. وقال قوم: يجوز أن يكون الله تعالى بنى داخله بنية حي، فصح منه الحنين وقال قوم: معنى "يهبط من خشية الله" إنه يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه. كما قيل ناقة تاجرة. إذا كانت من نجابتها وفراحتها، تدعو الناس إلى الرغبة فيها: كما قال جرير بن عطية: وأعور من نبهان أما نهاره * فاعمى، وأما ليله فبصير (1) فجعل الصفة لليل والنهار، وهو يريد صاحبه النبهي الذي يهجو به بذلك من أجل أنه كان فيهما على ما وصفه به. والذي يقوى في نفسي أن معنى الآية الإبانة عن قساوة قلوب الكفار، وأن الحجارة ألين منها، لو كانت تلين لشيء، للأنث وتفجرت منها الأنهار، وتشققت منها المياه، وهبطت من خشية الله. وهذه القلوب لا تلين مع مشاهدتها الآيات التي شاهدتها بنو إسرائيل: وجرى ذلك مجرى ما يقوله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله" (2) ومعناه لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، وكانت الجبال ما تخشع لشيء ما، لرأيت خاشعا متصدعا وكقوله تعالى: "ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض" (3) إلى آخرها سواء. وادخلت هذه اللامات فيها تأكيدا للخبر.

(1) ديوانه: 206 (2) سورة الحشر آية: 21. (3) سورة الرعد آية: